عمر الخيام

عمر الخيّام شاعرٌ فارسيٌّ عاش فى القرن الخامس للهجرة (٤٢٣ — ٥١٧) وأدرك فجر القرن السادس . عاش الرجل فى فارس فى عهد كانت فيه فارس ضمن المملكة العربية ، ومات فتنوسى وما بقى ذكره الا فى زوايا بعض المكاتب المجهولة أو غضون بعض التآليف المدفونة ، ولعله الشاعر الشرقى الوحيد الذى يتمتع اليوم بتقديس وإعجاب الغرب . ويعجب القارىء أن يرى شاعراً شرقياً يتمتع بهذا الاعجاب وينعم بهذا التقديس على خمول ذكره وخمود مكانته فى البلاد التى عمتْ لها وينتسب اليها .

ومات الخيام ولكنه مات كان غفوة وهى غفوة طويلة امتدت ثمانية قرون كاملة وثب بعدها بفضل شاعر انجليزى هو : ادوارد فتزجرالد Edward Fitzgerald اكتشفه وترجم رباعياته وشاد بذكره فأصبح الخيام حبيباً إلى كل نفس ، حبيباً إلى كل فؤاد .

ويذكر الخيام فلا يذكر إلا مقروناً بالشاعر الانجليزى ، كتبت لهما الصداقة فى الذكر وفى البقاء .

يقول شارل فروللو مترجم رباعيات الخيام الى الافرنسية :

« من الجذع البالى الذى ينام فى ظلال نيسابور انفصل فرع ونما فى الغرب فاذا هو بعث لزهور فارس وبعث لعطرها الجميل » . وقد أصاب ، وهو قولٌ حقٌّ وُفِّق فيه الى حد بعيد . . . . وقد كان فتزجرالد « خياماً » فى كل شىء ، ولهذا الشبه نحن ندين باكتشاف الخيام .

ورباعيات الخيام هى كل ما بقى من شعر الخيام ولعلها كل شعره . ولها على صغر حجمها وضئيل عددها كل الفضل فيما يتمتع به الخيام من شهرة وذيوع . ترجمت إلى كل لغة تقرأ وتدرس ، وما من أحد يعنى بالشعر إلا وقد قرأ للخيام أو سمع

به . وقد كان حظ العربية من الخيام غير يسير ، فترجمت رباعياته غير مرة إما عن الانجليزية أو عن الافرنسية أو عن الفارسية مباشرة . ونتناول الرباعيات لكل الذين وصلتنا ترجمتهم فنرى تبايناً فى العدد والوحدة ، فعدد ما ترجمه محمد السباعى غير ما ترجمه أحمد رامى ، وهذا الاضطراب فى عدد الرباعيات ونحن نقرأها فى العربية هو اضطراب عددها وهى فى أصلها الفارسى .

يقول أحمد رامى : —

« وصل عددها الى ثمانمائة فى أحد مخطوطات كمبردج ، وأقدم مخطوط لها فى أكسفورد لا يحوى غير ثمان وخمسين ومائة رباعية » .

وكان من آثار اضطراب العدد اضطراب الوحدة ، ونستطيع أن نرى رأى رامى فى هذا الاضطراب فى قوله: « فعمر لم ينظم رباعياته فى دور واحد من أدوار حياته وانما نظمها فى الفينة بعد الفينة حسب ما أوحى اليه خاطره وأملى عليه وجدانه » . وهو رأى صائب فى تفسير خلوّها من التماسك والارتباط ، فالفكرة فيها تكرر غير مرة وتتعدد فى غير مكان . ومما ساعد ولا شك على فقرها الى التماسك تناقل الألسنة لها حتى دخلها التغيير والابدال .

ونستطيع اليوم أن نتبين الخيام فلا نتبينه جزءًا جزءًا ، واضحاً كما كان ، فنتبين فلسفته ونتبين آراءه تائهة من أثر السنين .

عصر الخيام :

عاش الخيام فى عهد تدهور المملكة العربية ، وقيام الفتن والمشاحنات مقام السلم والهدوء . فما قام ملك أو دولة إلا لتقاتل ثم تخلع ، تنقرض دول وتنبعث دُوَل . فالشعوبية قضت على الوحدة العربية والأنانية قضت على كل خير ورفاهية ، فكان عهداً مات فى النفوس كل شىء ، غير الأنانية التى بقيت تعمل عملها ، وتسير سيراً جاداً ، تطارد الأمن ، وتمهد السبل للفوضى .

وكانت فوضى أشد ما يمكن أن يتصور الانسان فوضى فى الأعصر والأزمان . فالمشاحنات والفتن كانت على قدم وساق : فسيف الدولة يطارد كافور الاخشيدى ، وكافور يطارد سيف الدولة ، ومات سيف الدولة فقام معز الدولة وزحف الى البصرة فقاتل الثائر أبى القاسم البريدى ، ثم زحف الى الموصل وقاتل الثائر ناصر الدولة .

وبعد أن أعلن الفاطميون استقلالهم فى المغرب وزحفوا الى مصر وأصبحت القاهرة قاعدتهم سارت مطامعهم فامتلكوا دمشق والشام .

وقام القرامطة يناوشون الفاطميين وقطعوا عنهم كل هدوء وصفاء .

وقام الروم إلى المملكة العربية ، فقتلوا ، ونهبوا ، وعاثوا فساداً .

وقام بختيار ولعب دوراً أنانيّاً ، ونشبت سخيمة بينه وبين حاجبه سبكتكين التركى فثار ونهب دار بختيار فى بغداد ، وتولى زمام الأمر فيها .

وعلى هذا النحو كانت البلاد الاسلامية فى القرن الرابع . وكان القرن الخامس فانقرضت الدولة الأموية بالاندلس ، فانقسمت البلاد وأصبحت وحدتها الاسلامية ذكرى فى صدر التاريخ ، وقام فيها ملوك الطوائف يتقاتلون .

وقام السلجقيون فى المشرق « يريدون مكاناً تحت الشمس » فقاتلوا آل سبكتكين ، وامتلكوا خراسان وجرجان ، وظل نفوذهم ينمو وأمرهم يعظم حتى امتلك طغرول بك اصبهان وأذربيجان ، ثم وصل الى بغداد وخطب له فيها بالملك ، فى حين خطب فيها بالملك للفاطميين ، واستمرت هاته النغمة تتردد ، طمع ، وقتال ، والكلمة للقوة ، حتى كانت الحرب الصليبية ، وكانت تلك المعامع الكبيرة وتلك المعارك الدامية بين المسيحية والاسلام .

وذكرنا هذا أو كان يجب أن نسطر صورة أوضح وأبين عن تلك القرون الدامية . ولكن يستطيع أن يتبين القارىء مما كتبناه على إجماله تصادم الأهواء وتضارب المطامع ، وهى الفكرة التى نقصد اليها ، ونسعى لاظهارها ، كانت أشد ما يمكن أن تبدو للعين كما هى .

وذكرنا أهمّ الحوادث وما ذكرنا جميعها فاذا الأنانية هى روح ذلك العهد ، وهى روح وجدت فى ذلك العهد مرتعاً خصباً طلقاً ، لا تعثر فيه ولا اصطدام .... فكانت بفضله أبرز ما يمكن أن تبدو للعين واضحة جليّة ، لا ظلال على جوهرها ولا غبار . وهى روح ما قبعت بالبلاد الإسلامية ، ولكنها تجاوزتها الى البلاد الأوروبية ، فقام الغرب على ما به من جهل وعبودية ، وقام الشرق على ما به من تداعٍ وانحلال . وكانت الأنانية أنانية انسانية عمت السهل والجبل ، واكتسحت العراقيل والعقبات ، وجعلت من الانسان انسانا كما أراده الله ، يتألم بأنانيته ولا يستطيع غير التألم والعناء .

فلسفة الخيام :

هذا هو عصر الخيام ، وهذا هو العهدُ الذى عاش فيه وتألم الخيام وتبرَّم بالدنيا . وعبثاً يحاول الانسان تذوُّق لذة العيش ، ورائق الحياة فى هذا العهد الموبوء :

الدهر لا يعطى الذى نأملُ وفى سبيل اليأس ما نعمَلُ
ونحن فى الدنيا على همها يسوقنا حادى الردى المعجلُ

الخيبة منتهى كل مسلك والألم والحرمان خاتمة المطاف . ما خير أن يعنى الانسان نفسه بادراك ما يسعى اليه ، باطل الأباطيل أن يعلل نفسه بمنال الحياة بعد أن الت الحياة على نفسها أن لا تعطى الذى نأمل — وما الانسان ؟ أيعاند الأقدار ؟

جئتُ هذا الكون كالماء سجمْ ثم أرتدُّ كأنفاس النسمْ !

والماء يمشى فهل كان يدرى إلى أين يمشى ؟ ويرتد النسم فهل كان يعلم أنى يرتد ؟ والانسان ماء ، والانسان نسم ، يمشى لا مشية له فى مسيره ، لا يعلم أنى ينتهى ومن أين يأتى ، وكل ما يستطيع علمه أنه يمشى دامى الأقدام :

يا دهرُ أكثرتَ البلى والخرابْ وسُمتَ كل الناس سوءَ العذابْ

وهو عذاب الحياة ثم عذاب العبودية :

أفنيتُ عمرى فى اكتناه القضا وكشفِ ما يحجبه فى الخفاء
فلم أجد أسراره وانقضى عمرى وأحسست دبيبَ الفناء

يأس من معرفة الهناء وعجز عن إدراك القضاء ، وانقضاء العمر هباء ، فالعبودية هى نعمة السماء . هذه هى الحياة عبودية بعد عبودية ، وعذاب إثر عذاب ، وشقاء يتلو شقاء :

لقد أمضّ الهمُّ قلبى الجريح أين النديم السمح ، أين الصبوح ؟
هات أسقنى كأس الطلى السلسلِ وغنّنى لحناً مع البلبـــلِ

وليس الخيَّام منهتكاً مع المنهتكين المستهترين :

لم أشرب الخمر ابتغاء الطرب ولا دعتنى قلة فى الأدب
لكنّ إحساسى نزاعاً إلى إطلاق نفسى كان كلّ السبب

وليس الخيّام أحد المتصوفة الذين يعنون بالخمر جمال القوة السماوية وسحرها ولكنه سكير ككل السكيرين ، وخمره هى خمر العنب كان يحسوها فى خلوته وفى مجالسه « ليس لأنها أقرب وسيلة ، وأخطر سبيل يسهل عليه استشفاف نور الحق من وراء حجب الكائنات ، واجتلاء سرّ الابد من خلال ظلمة الغيب » كما يزعم محمد السباعى ، ويحسوها ليس لأنه متهتك كأبى نواس ، يندفع الى اللذة ظمأ إلى اللذة ، ولكنه الرجل الحائر أمضّه الشك ، وأتعبه عقله ، وأرهقه تفكيره ، يندفع إلى اللذة ، لا لأنها لذة ولكن لأنها تدنيه من عالم أرحم وأقل قساوة من عالمنا ، ويحسوها لأن المنون يدنو بخطى جبار فيكون أشد ما يمكن ظمأ إلى الخمر لنسيان كل شىء :

سارع إلى اللذات قبل المنونْ فالعمر يطويه مرورُ السنين
وأنت كالأشجار إن قلّمت فروعُها عادت رطاب الغصونْ

* * *

وانما نحن رخاخ القضاء ينقلنا فى اللوح أنى يشاءْ
وكلّ من يفرغ من دوره يلقى به فى مستقر الفناء

ويكون اندفاع الخيّام إلى الخمر واللذات اندفاعاً للذة ولكنها ليست اللذة التى فى طينة الرجل تحقيقها والسعى إليها ، ولكنها لذة يأوى اليها بعد أن ينفض يديه من كل لذة ، وهو اندفاع للذة وتبرّم بالحياة وحرص على الحياة يبلغ إلى الكفر بالغيب ، وجحود البعث يثوب بعده الى رشده وينتهى مؤمناً فى استسلام :

يا قابلَ الأعذار فثنا الى ظلك فاقبل توبة التائبينْ

وكذلك بحث فعجز ، فتبرم ، فكفر . وينتهى الكفر ويغيض الجحود ، فلا يغيض تبرمه بالحياة ، ويبقى الخيام متبرماً كما تبرم المعرّى والذين لا يعرفون للحياة طعماً يلذّ وجانباً يغوى ويستهوى ، ولكن تبرم الذى يحسن تذوقها ، ويحذق الاستمتاع بها وهو يتبرم منها ويعرف الالتذاذ بها وهو ناقم عليها !

هذا هو الخيّام وهاته هى فلسفته : اندفاع للذة ، واندفاع للذة تبرم بالحياة

وحرص على الحياة . وقد لا يتبرم من رُزق عناداً وصلابة فى العود وصلابة فى الكفاح ، ولكن الخيام رجل ضعيف ما خُلق للمغامرة والكفاح فكانت فلسفته نقمةً واستسلاماً : فعصره جعل منه متبرماً فى استهتاره متشائماً فى التذاذه واستمتاعه ، وضعفه جعل منه مستهتراً فى تشاؤمه ، ومستسلماً تتقاذفه أمواج الحياة أنَّى تدفعها العواصف والرياح .

يقول ابراهيم عبد القادر المازنى :

« يخيل اليك وأنت تقرأ رباعياته المترجمة إلى العربية عن الفارسية كأن الخيَّام « كأولاد البلد » أبناء الجيل الماضى فى مصر ممن كان همهم أن يحيوا الليل بالشراب والطرب والأنس ، فاذا تنفس عادوا لمخادعهم وأسدلوا الأستار ، وجببوا الضوء وألقوا رؤوسهم على الوسادة وناموا ، ولا نعدم من هؤلاء فلسفة ، فقد تسمع منهم قولهم أن العمر قصير وأن المنايا واحدة ، وأن العصفور فى اليد خيرٌ من ألفٍ على الشجرة ، وبعد رأمى لا كانت الدنيا ... إلى آخر هاته الكلمات التى تخطر بكل بال ، وتكاد تجرى على كل لسان ، والتى هى من الشيوع والابتذال بحيث لا تستحق تكريم الارتفاع بها الى مستوى النظرات فى الحياة » .

وقد انتبه القارىء الى هذا ولا شك وهو يتلو ما ذكرنا له . ويعجب لأن يكون للخيام الشاعر المكانة التى سمعها عنه فى الغرب فيتهم النفس الغربية بالبلادة والموت ، وما بالأمر بلادة أو موت . والخيام الذى ترجم له فتزجرالد الانجليزى غير الخيام الذى ترجم له رامى والزهاوى ، فكل ما ترجمه الأخير فلسفة ليست فلسفة مستهتر متهتك عربيد كفلسفة «أولاد البلد» - إن كانت هذه فلسفة - ولكنها فلسفة أو فقل آراء متشائم لا حرارة فيها ولا اهتياج . وليس كما يقول المازنى « ذكر الأيام والفناء والأقدار هنا وفى أمثال هذه الرباعيات يشعرك لفح الحرارة التى تحسها من رباعيات فتزجرالد وألم الجنون من عجز الشاعر عن حل الألغاز التى يعالجها وفك المعميات التى يعانيها وكشف الأسرار التى يغوص عليها » .

وترجمة فتزجرالد هى لشاعر له فلسفته ، وله نظرته ، وهى لشاعر ساخر متبرّم متهتك نحس بقوته وحياته فى أىّ لفتة من التفاتاته وأىّ حركة من حركاته . واذا علمنا أن اتفاق الزهاوى ورامى فى نضوب ترجمتيهما من الحياة هو نضوب رباعيات الخيَّام من الحياة وهى فى الفارسية ، علمنا أن فتزجرالد أسبغ على الخيَّام

من روحه دون فلسفته أو فقل نفخ فى فلسفة الخيّام فانتبهت حيةً نابضةً ودبّت على الاقدام ، وكان الخيّام شاعراً بروح فتزجرالد واليه يدين بما له من ذيوع وشهرة ؛ فلولاه لما كان الذى كان ، ولبقى فى ظلال النسيان والاهمال . وندرك جيداً أن سرّ خمود ذكر الخيام فى الشرق طيلة ثمانية قرون هو فى الخيام نفسه وأنّ ذيوع الخيّام وشهرته هو لفتزجرالد .

* * *

واليوم ينام الخيّام وينام فتزجرالد : الأول فى نيسابور والثانى فى انجلترا ، كُتبت لهما الصداقة فى البقاء ، صديقان لا يفترقان إلى الأبد ، اشتركا فى أثر هو من أجل الآثار التى يقرأها الانسان ويتلوها ؟

تونس : محمد عبد الخالق

بشار بن برد

أخلاقه فى شعره

بشار بن برد شاعر مجيد من شعراء الدولة العباسية ، وُلد أعمى من بطن أمه ، وقال الشعر وهو ابن سبع سنوات ، وأول ما قال فى الهجاء . وكان هجاءه مقذعاً جدّ الاقذاع وقد تفنن فى ضروبه الى أن امتدّ لسانه أخيراً الى هجاء أمير المؤمنين المهدى عم هارون الرشيد فأعلمه أحد الامراء بما قال بشار فيه وكان هذا الأمير حانقاً على بشار لأن بشاراً كان قد هجاه من قبل فأمر المهدى بأن يجلد بالسياط ولذلك سبب لا يخفى على أديب وإن كان فى نفس المهدى الانتقام منه من جراء هجائه له فآلمه الضرب ومات بعد أن بلغ من الكبر عتيّاً وكان الضرب سبب موته . وبشار يجيد المديح كل الاجادة لأنه اتخذه وسيلة لكسبه وسدّ عوزه ، وكان يتردد على الأمراء وأصحاب الثراء فيمدحهم بالقصائد المحكمة الرصينة فيبذلون له المال ويعطونه ما يريد ، لا اختياراً منهم ولكنهم كانوا يفرقون من لسانه البذىء أن يمتدّ اليهم فيلبسهم عاراً ، والويل لمن يمدحه بشار ولم يعطه شيئاً . وناهيك بشاعر يقول كلمة فلا تكاد تخرج من فيه حتى تسمعها من وقتها وقد لاكتها أفواه العامة غاديها ورائحها ! فهو إن مدح أحداً فلسان حاله يقول : إن لم ترد حمدى فراقب ذمى !

وقد يبلغ فى مدحه أحياناً الى الغلو، مثال ذلك قال يمدح رجلا يقال له عقبة ابن سلم :

حرم الله أن ترى «كابن سلم» «عقبة» الخير مطعم الفقراء

ولك أن تتأمل فى «حرم الله أن ترى كابن سلم» فتعرف مقدار تزلفه ومغالاته فى المدح، والشواهد على ذلك كثيرة فى ما بقى لنا من أشعاره وما بقى لنا منها الا النذر اليسير. والتاريخ يقصّ علينا أن بشاراً نظم اثنى عشر ألف قصيدة فضيعها الاهمال وخيم عليها النسيان بطول الزمن فلم يبق منها غير مقطوعات وقصائد قليلة متفرقة فى بطن كتاب (الأغانى) . .

ولبشار غزلٌ يسيل ظرفاً ورقة ، ويتدفق شهداً وحلاوة ، خال من كل تعقيد وكلفة ، وإن لم يخل من الاستهتار فى بعض المرات . وكيف لا يكون رقيقاً فى غزله وهو الذى راض أحوال النساء وعرف دخائلهن وهو القائل :

عسر النساء الى ميسارة والصعب يمكن بعد ما جمحا

وقد يأخذك العجب فى أعمى يحب ويهيم بالمحبوب، ويتيمّه الحب ولكن دهشتك قد تزيد إذا قرأت له أبياتاً وقد وصف فيها المحبوب وصفاً دقيقاً كأنها لمبصرٍ من الشعراء المجيدين. مثال ذلك قوله :

بنت عشر وثلاثٍ قسمت بين غصنٍ ، وكثيبٍ ، وقمرْ !
دُرَّةٌ بحرية مكنونة مازها التاجر من بين الدررْ

وقوله :

وما نظرت عينى غداة لقيتها بشىء سوى أطرافها والمحاجرِ
وحوراء من حور الجنان غريرة يرى وجهه فى وجهها كلُّ ناظرِ

هل هذه الأبيات لشاعر أعمى ؟! أجل : هى لبشار الشاعر الأعمى الذى يقول :

إن كان عينى لا ترى وجهها فانها قد صُوِّرت فى الضميرْ !

أو يقول : ... فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللبِّ

ولكن ضمير بشار فى بعض المرات يكون مصوِّراً ماهراً يصوِّر له الحبيب بماء اللؤلؤ فى صورة فاتنة ساحرة حتى أن عينه «التى فى ضميره» اذا وقعت على جارحة من جوارح الحبيب يأسرها صفاء تلك الجارحة ورواؤها وتناسب

أعضائها فيعتريه فى الحال ارعاد فى داخل الحشا ويخيل اليه وهو ينظر الى محبوبته أن لكل جارحة من جوارحها وجهاً مليحاً فاتناً ماثلاً أمامه ، وهذا خيال بديع . قال :

تلقى بتسبيحة من حسن ما خلقت وتستفزُّ حشا الرائى بإرعادِ
كأنما صُوِّرت من ماء لؤلؤةٍ فكلُّ جارحةٍ وجهٌ بمرصادِ

ويعجبنى قوله يخاطب الحبيب :

أملى ! الا تأتِ فى قمرِ لحديثٍ واثق الذرعا
وتوقَّ الطيبَ ليلتنا إنه واشٍ اذا سطعا

غير أنه تغلب عليه الزندقة أحياناً فيخفيها .

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلمِ

والزندقة من الخاصية التى تعرف بها كما للطيب من الخاصية التى تظهره وتنمُّ عنه فهو يقول مفضلاً ابليس على أبينا آدم وينعت الناس كلهم فاجرهم وتقيّهم بكلمة « الفجار ! » فى غير تورع :

ابليس خيرٌ من أبيكم آدمٍ فتنبهوا يا معشرَ الفجارِ !
ابليس من نارٍ وآدم طينةٌ والأرض لا تسمو سموَّ النارِ

وضرب لنا مثلا ونسى خلقه وظن أنه من مارج من نار ! ولكن زندقته لم تقف عند هذا الحد بل ذهب يتفنن فى ضروب تفضيل النار على الطين ، أو بعبارة أخرى الجان على البشر بحجة أن النار كانت إلهاً يعبد منذما عرفت بين الناس ، قال:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

ولبشار ولع بشرب الخمر وإدمانها لا يقل عن ولعه بالتشبيب بالنساء ومغازلتهن فهو يقول واصفاً الخمرة وما تفعله بالعقول من قوة مفعولها :

نفحت نفحة فهزت نديمى بنسيمٍ وانشقّ عنها الزكامُ
وكأن المعلول منها اذا راح شجٍ فى لسانه برسامُ
صدمته الشمولُ حتى بعينيه انكسارٌ ، وفى المفاصل خامُ

وهو باقى الأطراف حيث به الكأ س ، وماتت أوصاله والكلامُ !

ولكن رغماً عن ادمانه على الخمر وولعه الشديد بها لا يجهل ما تجره على شاربيها من شرور كامكان ما لا يرام ، مع ضياع ماله وعدم معاودة الكرى لعينيه من الهم الذى لحقه من ضياع المال وبكائه كالطفل حين تغيب عقله وتفقده صوابه ، قال :

وفتى يشرب المدامة بالما ل ويمشى يروم ما لا يرامُ
أنفذت كأسه الدنانير حتى ذهب العين واستمر السوامُ
تركته الصهباء يصبو بعين نام انسانها وليست تنامُ
جنّ من شربة تعلّ بأخرى وبكى حين سار فيه المدامُ

وكيف لا يكون عارفاً بتأثير الخمر فى عقول شاربيها وما تجره عليهم من ويلات مَن يقول :

قد عشت بين الندمان والراح والمز هر فى ظل مجلسٍ حسنِ

فهو اذاً خبير لا يلتبس عليه أمر فى كل ما زعم من قول عن الخمر .

وأخيراً لا يسعنى قبل أن أختم الكلام الا أن أقول إنى لم أجد من بين شعراء العربية مَن له شعر يضارع شعر بشار سلاسة ورقةوأسلوباً سهلاً كأسلوب بشار فى أشعاره ، ولا سيما ما كان من أشعاره فى الغزل ، وكيف لا يكون كذلك من يقول عن نفسه :

وشعر كنور الروض لاءمتُ بينه بقولٍ اذا ما أحزن الشعر أسهلا!

الجزيرة أبا : السودان

بشرى السيد أمين